Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التأمل بالأحلام والقنوط بالرجاء. عندما لا يتكلّم من الرجل غير صوت الطمع والتهديد والمفاخرة تسمعن في صوت المرأة أنيناً كأنما هو بقيّة زفرة أو تتمة بكاء. وحينما يعتزُّ الرجل بادراك ذروة السؤدد ونيل بعيد الغايات ترينَ المرأة منحنية على نفسها كمن ينحني على جرحٍ بليغ، ترينها منحنية على قلبها لأن شيئاً يظلُّ نائحاً فيه. وسواء في ذلك تلك العائشة في وسط الأبّهة والتبجيل والأعظام، وتلك الحقيرة التي تتقاذفها عواصف الحاجة واليأس والهوان.

كان هذا القلب القدير يتلظّى مضطرماً في صدر باحثة البادية على مقربة من ذكائها الفطري، ولم تكن ألفاظها إلا شرار وميضه. به اختبرت البيئة المصرية في كثيرٍ من مظاهرها ودرست المرأة المصرية في جميع أطوارها. ولما أن هالها ما شهدت من ذلٍّ وتعاسة غمست قلمها في مدادٍ إنما هو سيّال قلبها الناري، وكتبت فصولاً خالدات. إن محاسن التنميق والإنشاء تُعجبُ وترضي إلى حين، لكن يا لسرعان ما تُدرج تلك المحاسن في أكفان النسيان لأن الطبيعة البشرية لا تحتمل الإعجاب المتواصل. أما الكلام المنطلق من القلب كقطعٍ متّقدة فيدخل القلوب مباشرة بلا وسيط، ويمتزج بها لأنه يُعبّر عنها، يمتزج بها حتى يصير جزءاً منها يأبى التفرّق والإنفصال.

وكما أنها أصابت في لمس مواضع النقص وتشخيص العلل القومية كذلك رأت ببصيرتها النقيّة أكثر طرق الإصلاح اعتدالاً وأقربها اتفاقاً مع سير الإرتقاء الطبيعي. وقارىء «النسائيات» يقف على خطتها الاصلاحية الرشيدة حيث لا يكون الرجل جائراً مستبدًّا ولا المرأة ساخطة متمرّدة، بل يتصافى الإثنان فتصير هي له أخلص الأصدقاء وأوفى المساعدين، ويُصبح هو لها أخلص الأصدقاء وألين المرشدين. فيسيران في سبل الحياة وقد جعلهما التفاهم متغلّبين على المصاعب، متعاونين على تبادل المنفعة والسعادة.